معالم المدن العراقية في رسائل نازك الملائكة

الحلقة الثانية

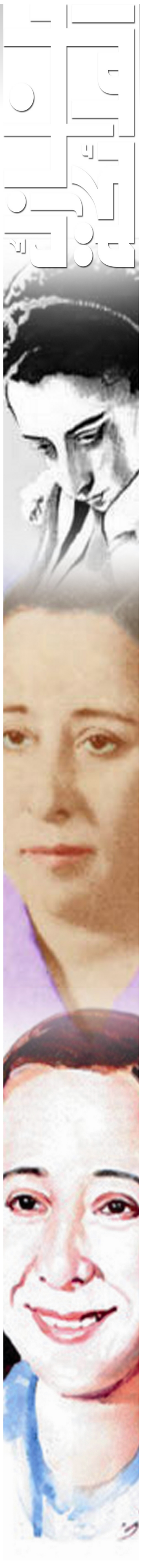

اعدتها للنشر: احسان الملائكة

الى شقيقتها أحسان الملائكة
مصيف صلاح الدين ٢٦ تموز ١٩٤٧

عزيزتي أحسان

تحرك القطار من بغداد، القطار الذي يُخيل لي أنه مخلوق مادي متجبر يتكلم أبداً بالعامية التي أنفرمنها وتنفرين، ولم أسمعه يوماً ينطق بكلمة فصيحة، فهو لايكف عن الصراخ بكلمة (شتريدون شتريدون) في غير مراعاة لإحساساتنا الرقيقة وأنحنيت أنا أُطل من النافذة على المودعين الأعزاء، وفي قلبي حزن ووحشة، وانتبهت رفيقاتي الى سكوني ولون الكآبة في وجهي، وفي اللحظة التالية صرتُ هدفاً لضحكاتهن، الا انني كسبت المعركة ولذت بسكوني، ورحت أطل من النافذة على حبيبي الليل الرومانتيكي الممتد البديع. وسرعان ما أقنعتهن باطفاء النور والاكتفاء بالظلام. راح القطار المتوحش الصارخ ينساب في الظلام، والقمر ينظر بوجهه الشاحب، والجبال الجبارة تبرز هنا وهناك، تبن فجأه وتختفي فجأة. ونازك الملائكة فريسة سهلة لأعنف أصناف التأثر والانفعال. ومررنا بنفق أسود طويل تلاه واد رهيب، وساد السكون، ودقت الساعة الثانية صباحاً فأسلمت جفني للنوم.

كان أول مافعلت في الصباح، قبل شروق الشمس أن شهقت ثم صرخت، فقد رأيت سلسلة طويلة ممتدة من الجبال.. الجبال التي عشت أحلم بها وأتمناها.. جبالي الحبيبة في ملحمة (مأساة الحياة)) ((آه لو عشت في الجبال البعيدات أسوق الأغنام كل صباح)) الجبال.. الجبال يا لها فرحة سماوية كادت تمحو وحشتي وتعيد الي مرحي المفقود!.

بلغنا كركوك في الثامنة صباحاً، ونزلنا في دار الاستراحة، فبقينا فيها ساعة، ثم جلنا في طرق المدينة الرئيسية، وغادرنا كركوك في العاشرة، وأبتدأت تلك السعادة الجنونية الملتهبة تحيط بقلبي.. بكياني، وتحولتُ الى طفلة متحمسة تحمساً مضحكاً، وماذا تنتظرين مني غير ذلك أذا تخيلت ما رأيت؟ النيران الأبدية التي لا تخبو بين الجبال.. نيران كركوك الحمراء الشهيرة بلونها الأحمر الغامق.. ثم الأراضي الملونة الشعرية، ونحن في أعلى الجبل الذي يبدو مزركشاً بألوان غريبة.. بقعة حمراء وبقعة خضراء وثالثة صفراء ورابعة وردية، كل هذا والأرض جرداء عارية.

وفجأةً شعرتُ أن قلبي قد هبط وتدحرج، وسرعان ما فهمت الذي حدث، فقد هبطت السيارة الى واد منحدر آذى قلبي الذي لم يعتد هذه ((البهلوانيات))، وخلال الساعتين التاليتين تكرر هذا عشرات المرات حتى أعتدتُ عليه.

وهذه أربيل!! أية معان شعرية تملأُ نفسي! أنها يا أحسان مدينة عادية في بناياتها الصخرية، واهلها فقراء الى حدٍ ملأني عذاباً ويأساً، على أن الشيء الذي أثار عواطفي أن المدينة مشيدة على جبل ضخم غريب الشكل تحيط بها قلاع أشبه بما ترسمه لنا ذكريات ((الأقطاع)) في أوربا، ولها باب واحد تقودنا أليه سلالم صخرية تعبنا تعباً شديداً ونحن نصعد اليها، وحين دخلت بابها الضخم لاحظتُ مستغربةً أنّ شوارعها كلها تسير الى الأعلى، وأنّ قطعها يكلفنا مجهوداً شاقاً لأننا نتسلق في الواقع الجبل كما هو في الأصل، ومعنى هذا أننا نصل الى أعلى مكان في المدينة الغامضة حين نصل الى وسطها! تخيليني وانا أنظر بعيني المشدوهتين الى حد البلاهة تخيلي هذا كله!! ضَمَّتنا أربيل الى صدرها الصخري ساعةً ونصفاً ثم أطلقتنا الى قلب الجبال المؤدية الى جبل ((صلاح الدين)). لكننا قبل بلوغ الجبال شهدنا منظراً عجيباً... دوامة هوائية مدوّية، مكَّونةً عموداً من التراب الأحمر يرتفع الى علوٍ غريب.

انطلقت السيارة من قلعة أربيل الى قلب السهل الفسيح الملون الذي يؤدي الى صلاح الدين، جنتي الحبيبة وفجأة لاحتْ امامنا سلسلة جبال هائلة تشق السماء، وقال قائل ببساطة ((سنرتقي هذه السلسلة قبل الوصول الى صلاح الدين)) فقال جميع من في السيارة ((مستحيل، هذا مزاح غير مستحب)) لكنّ السيارة سارتْ الى الامام، وبدأنا نصعد، والسيارة تسير بعناية وبطء شديدين، ورحت أنا ألاحظ الجبال بأنفاس مكتومة وقلب مرتعش بالانتظار واللهفة. وارتقينا الجبل الأول، وكان على علوه الكبير يبدو قزماً ضئيلاً الى جانب ((الهول)) الذي هو الجبل الثاني. نحن الآن في القمة، وسنهبط الآن... ((بسم الله الرحمن الرحيم)) ((اقرئي آية الكرسي)) (رحماك يارب)) بعض كلمات رددتها من كانت معي، والتفتُ أنا أحدق في وادٍ أخضر ساحر الا انه عميق عميق، والطريق اليه مبلط، الا انه منحدر انحداراً هائلاً ضخماً يسخر من مخاوفنا!!. فجأةً برزتْ سلسلة جبال مخيفة خُيِّل اليّ أنها تنطح السماء، جبال عالية عالية شاهقة شاهقة، وخيل لنا ثانيةً ((سنصعد)) وعادت ((أديبة)) تهتف إلله أحد، الله أكبر وبدأنا نصعد. أننا الان في وادٍ أخضر ساحر، ترويه عينٌ ماء تنبثق من بين الصخور، ووقفت بنا السيارة تحت الظل لتبرد قبل البدء بالصعود الهائل. كيف تصعد السيارة جبلاً ياأحسان؟ اننا نتخيل انها تصعد دفعةً واحدة من أسفل الوادي الى قمة الجبل!. لكنّ هذا ليس صحيحاً، فالسيارة في الواقع تدور حول الجبل في دوائر مميزة عجيبة تثير الخيال والفكر والانفعال معاً، وهذه هي القاعدة العامة في صعود الجبال، وأرجو أن تتخيلي حول الجبل وادياً عميقاً يناسب علوه. وكلما أرتقتْ السيارة اصبح الوادي أعمق وأكثر روعة وتخويفاً! وفي منتصف المسافة بيننا وبين قعر الوادي، أبصرنا قطيعاً من الغنم يبدو كالنمل لاأكثر!! أما أنا فقد كدتُ أفقد عقلي تحت عبء أحساساتي العنيفة المتفجرة، ولم أعدْ أستطيع الاستقرار لحظة، وتكدستْ نفسي شاعرية مؤذية أحسستُ معها بأنني أشعر مني في أي وقت مرَّ بي طيلة حياتي.

وبلغنا قمة الجبل بعد نصف ساعة، وانبسطتْ أمامنا مناظر مصيف صلاح الدين فجأةً ودون أي تمهيد. وها هو صلاح الدين! أشجار جبلية ضخمة متفرقة تبسط ظلالاً سحرية رائعة، ونسيم يهب ناعساً رقيقاً رغم أشعة الشمس، ونحن في بقعة واقعة في قمة الجبل تحفّ بها من جهتين جبال أضخم عشرات المرات من أضخم جبل عبرناه. ومؤدي الكلام أننا في جنة شعرية فاتنة الى حدّ مخيف، فاتنة فتنة مؤذية خطرة! أكتب هذا في العاشرة ليلاً، القمر مشرق، والأشجار تحنو علي بظلالها البديعة، وقد نام الجميع الا أنا ومنذ دقائق كان المساء مختلطاً بصوت الموسيقار السماوي تشايكوفسكي في لحنه الرائع ((كسارة البندق))، أنا والليل وتشايكوفسكي والجبال ماذا ينقصني؟؟ الآن أنا أحبّ الحياة وأفتح لها قلبي كله، أحبّ الناس واحبكم بأحبائي في بغداد وحتى نفسي!! وسأذهب حالاً لأنام على سريري تحت النجوم لأحلم بكم وبالكرادة ومن فيها.. ببغداد.. بالعراق.. بالعالم!! لقد نام الجميع بعد السهر الطويل والتعب، ولم يبقَ من الساهرين الا ثلاثة أنا والجبل والنجوم! والنعاس الآن يلعب بأجفاني، وسأنهض لأودع هذه الرسالة في خيمتي الشاعرية وأستلقي تحت الليل لأنام. أبرقتُ اليكم حال وصولي مصيف صلاح الدين.

أرجو أن تكون البرقية وصلتكم. وأخيراً اليكم تحياتي، قولي لوالدتي إننا مرتاحون جميعاً أما أبي فأذكر له أن الاكراد قوم مسالمون نبلاء بسطاء وأنا أحبهم. بعد هذا سأقول لكم من جديد.. أنا والجبال وعيون الماء نبتسم لكم من صلاح الدين!!.

- أختك نازك -

ملاحظة: أكتبوا اليّ بالعنوان التالي:-

مصيف صلاح الدين . مخيم جمعية المعلمين . الآنسة نازك الملائكة.

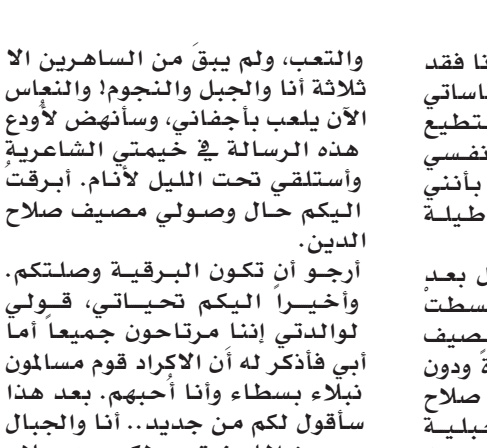

في اربيل معان شعرية ملأت نفسي

في مصيف صلاح الدين : جنة شعرية .. ونسيم يهب ناعساً رقيقاً

نام الجميع ولم يبقَ من الساهرين الآ ثلاثة انا والجبل والنجوم